قراءة سيميائية في ديوان

(بريد الفتى السومري)

للشاعر عدنان الفضلي

بقلم الناقد والقاص العراقي

أ.د. مصطفى لطيف عارف

قراءة سيميائية في ديوان (بريد الفتى السومري) للشاعر عدنان الفضلي

إنّ اللوحة -بنوعيها لوحة الغلاف، واللوحة الداخلية- هي الأيقونة الأبرز في أولى العتبات، فهي علامة دالة تستقبل ضمن أنساق تتفاعل فيها اللغة، واللون، والحركة، والقصد العام لهذه العلامة، أي اللوحة، وتمثل هذه العتبة الأيقونة الأولى، والأكثر وضوحاً في شريط العلامات السيميائية التي يتشكل من مجموعها، أي مجموع أيقونات هذا الشريط، معرض النص، فاللوحة تمثيل للمكتوب ونقل له إلى صورة /لوحة، وهذه الصورة/اللوحة هي اجتهاد مستمر لاختزال مقول النص الذي تتبناه هذه اللوحة سواء أكانت لوحة غلاف لعمل كامل، أم لوحة داخلية لنص محدد كما يراه الدكتور الدوخي، فاللوحة الداخلية تمثل فعلاً مساعداً يستمد مقاصده من الفعل الرئيس -لوحة الغلاف- ويجتهد من أجل فتح مديات أوسع أمام المحفل النصي، وفي ضوء هذا الوصف نجد أننا أمام تقسيم بائن لهذه العتبة، يتوزع على نوعين ثابتين وقارّين للوحة في العمل الشعري هما: لوحة الغلاف، واللوحة الداخلية، وهذا التقسيم يبين أن لهذه العتبة سلطة استقصائية للمعنى الأدبي منطلقة وراءه بدءاً من الغلاف، الذي تتمركز فيه لوحة الغلاف، مروراً بحيثيات المتن الأدبي الذي تقدمه -داخلياً- اللوحة الداخلية، وصولاً إلى المعنى الدال والمراد منها -أي من اللوحة- تمثيله ونقله مبصراً إلى المتلقي، وعتبة لوحة الغلاف هي الشكل الخارجي الأكبر لهذه العتبة/ اللوحة، إذ تبين -داخل متنها- أشكالاً صغرى لتكون بذلك شبكة سيميائية تستطيع الإحاطة -تمثيلاً- بالمنجز الذي تغلفه، ففي ديوان (بريد الفتى السومري) للشاعر عدنان الفضلي، والتي كانت لوحة غلافها من رسمها، تتشكل من ثلاثة ألوان متسلطة وحاكمة على المرئي من هذه اللوحة وهي: الأخضر، والأحمر، والأزرق، الأخضر: لقد تمكن من تغطية ثلث مساحة اللوحة تقريباً، والمعروف أنّ هذا اللون رمز للخصب، أي أنه دليل الطاقة والقوة ، والأزرق الممثل لعنوان اللوحة، ليشير بتماهيه هذا أن له معنى آخر وهذا ما نلحظه في وصوله للمكان الأعلى الذي جاء على شكل كلمة كبيرة في أعلى الديوان، وقد خُطّ اسم الشاعر عدنان الفضلي باللون الأسود ليؤكد أنّ هذا الاسم ينتمي إلى الشريط الأسود في أرضية اللوحة، لذا كتب الاسم بالأعلى في حدود اللوحة ضمن الشكل الأصفر ليكون تعبيراً تشكيلياً لما أراده العنوان، أي أنه أخذ هذا الاسم إلى حدود الشمس في ارتفاعها، وتشتمل على علامات سيميائية متعددة تفضي إلى دلالات خارجية تكشف عنها بنيتها السطحية التي تحيل على البنيات العميقة التي تتمثل بالعالم الدلالي. والعنوان هو العتبة المقدسة نصياً، فبه يتكثف المتن ومنه يأخذ هذا المتن شحنته التي تبقيه صالحاً -وباستمرار- للقراءة بكل أشكالها المواجهة والفاحصة والمنتجة، إنه النص وعن طريق ضبطه نتمكن من إيصال طرود الانطباع والتأويل بسلامة تلق فاعل، على اعتبار أن العنوان هو الموجه الأساس الذي تسترشد به القراءة عن أخبار النص الأدبي والغاية التي يريدها، ، ومدى الاشتغال على إغوائه عن طريق هذه العارضة الإشهارية -العنوان- أي الاهتمام بالقارئ المقصود، المخصوص بالخطاب، الذي -كما يرى وولف- يمثل فكرة النص المركزية التي تشكلت في ذهن الكاتب، فالاهتمام بالقارئ يعني الاهتمام بالنص نفسه، لأن القارئ هو المتكفل بإعادة إنتاج النص وتشكيله على الدوام، فقد أصبح القارئ مشاركاً ومتابعاً ومفسراً لكل شفرات النص ودلالاته وفك شفراته إنه مبدع ثانٍ للنص على رأي الدكتور الدوخي

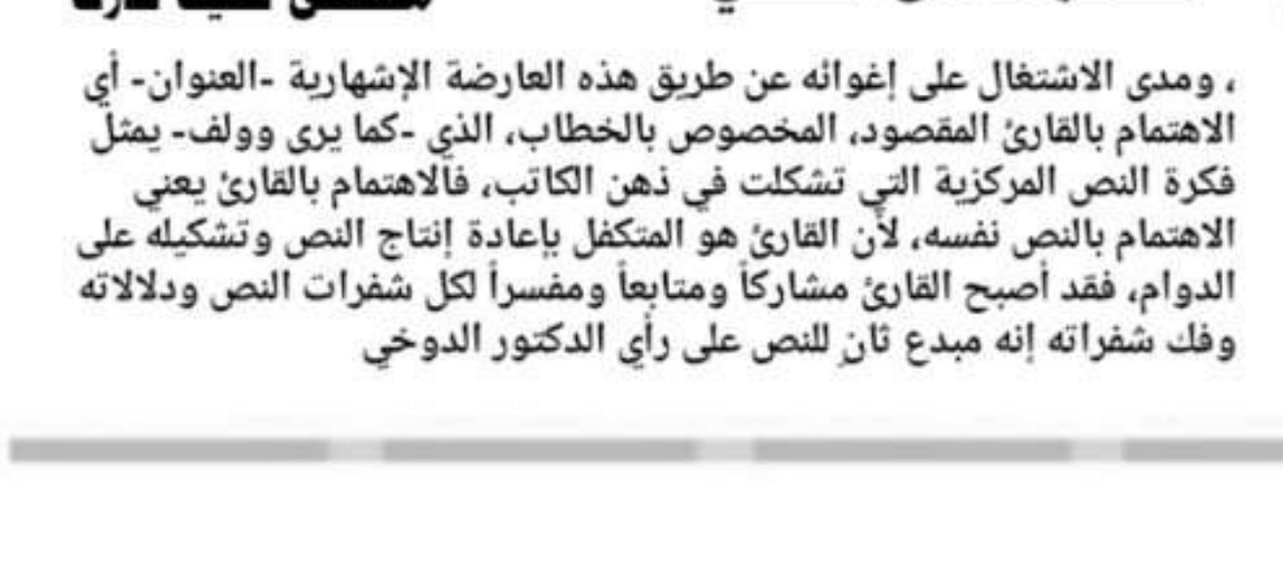

الناقد والقاص العراقي أ.د.
مصطفى لطيف عارف
الشاعر عدنان الفضلي

قراءة سيميائية في ديوان (بريد الفتى السومري) للشاعر عدنان الفضلي

إنّ نظام العنوان يعمل وفق قوننة غاية في الحساسية، إذ يتبلور النص بموجبه، فإذا كان العنوان طويلاً ساعد على توقع المضمون الذي يتلوه، أما إذا كان قصيراً فعندها لابد من قرائن تساعد على التنبؤ بالمضمون، ومن الممكن أن يكون دالاً صوتياً كان الديوان يكون (بريد الفتى السومري) للشاعر عدنان الفضلي، أو أن يكون علامة محددة بنوعها مروية مثلاً، أو علامة استفهام ، أو على شكل نقاط وعند ذلك يبدأ العنوان عمله بوصفه بحسب أمبرتو إيكو -مفتاحاً تأويلياً-، أو مفتاحاً لمدخل الديوان، فهو يختصر الكل، ويعطي اللمحة الدالة على النص المغلق، فيصبح نصاً مفتوحاً على كل التأويلات، وهنا في ديوان (بريد الفتى السومري)، وعلى وجه خاص فإنّ العنونة من كونها تشغل منطقة إستراتيجية في عملية التلقي، هي المنطقة الأولى بصرياً ودلالياً، تلك المنطقة التي يحدث فيها التصادم الأول بين القارئ، والعمل الأدبي، وفي ضوء ذلك امتلكت هذه العناصر وظيفة خطرة هي قيادة القارئ إلى جغرافية العمل الأدبي ومنحه مفاتيح استكشافه وإضاءة مجاهله، ولاسيما أن رولان بارت قد وسع مفهوم السيمياء، فلم يعد محدداً -كما يرى دي سوسير- بالعلامة اللسانية، بل بكل ما هو لفظي، أي محاولة تطبيق اللغة على الأنساق، وقد مثلت الهندسة العنوانية عند عدنان الفضلي جملة من الوظائف التي تعد وظائف ترويجية للمحتوى الشعري، ففي العنونة (بريد الفتى السومري) التي تدل على معنيين الأول هو (بريد الفتى)، والمعنى الثاني أقرب إلى الشاعر (السومري) لأنه وصل إلى مرحلة أن يقدم أشعاره عن طريق البريد وهي مفردة جميلة استطاع الشاعر الفضلي تجسيدها في عنونة ديوانه الشعري، ونجد الربط بين العنوان والمتن يتحقق في قصائده الموجهة للمتلقي، وبعنوانها الداخلي توجيهاً خاصاً، وبذلك يمكن أولاً أن نربط العنونة الرئيسة/ الخارجية، مع العنونة الفرعية/ الداخلية، ومن الميثاق التواصلي الذي يعقد في ضوء الارتباط المتين بين العنوان الرئيس، والعنوان الفرعي يتحقق العنوان في ديوان بريد الفتى السومري.

والعنوان الذي له دور كبير فيها التكثيف، وطاقة المفردة التضاد في قصيدة الومضة النزعة التشكلية في قصيدة الومضة النزعة الصوفية العفوية الإيقاع، والتكرار، وغيرها، وهنا سنتوقف بالنقد عند بعضها، العنوان ظاهرة حديثة إلى حد ما، ولا يخفى سببه ببعد المتلقي عن واقعة القول مما اقتضى إعطاءه المفتاح للولوج في النتاج الشعري ومقولة إنّ البيت الشعري لم يكن له عنوان لعدم الحاجة له لم يكن افتقاراً بل غنىً وذلك أن البيت يكون رداً لحظياً عن واقعة، أو فكرة، فيكون كالجواب؛ فضلاً عن نمط الوقوف على الأطلال بالقصيدة العمودية يحضر المتلقي سلفاً لما ستقوله لأنه له العلم السابق الذي أقره عرف التلقي فلا يشعر بغرابة القول في حين القصيدة الحديثة وخاصة طغيان شكل الكتابة وندرة الشفوي، فرض العنوان بحكم بعد الإرسال عن التلقي وهذا ما جعل للعنوان هذا البعد الدلالي، وهذا من أحد أسباب شيوع العنوان في القصيدة الحديثة، ونجد ذلك متجسداً عند شاعرنا (عدنان الفضلي) وخصوصاً في ناحية التكثيف، وإخراج الكلمة من قاموسيتها، وإبداع علاقات جديدة غير مألوفة هو جوهر القصيدة الحديثة، وخاصة قصيدة النثر، وعليه ما هو الجديد في قصيدة الومضة وهذا ينطبق على كل الخصائص الأخرى المتواجدة بشكل علني، وجوهري في قصيدة النثر، وفيما يتعلق بالنزعة الصوفية، وشروطها كاستخدام القاموس الصوفي، والبعد الميتافيزيقي الذي ترومه هو أسلوب لم يغب عن القصيدة العربية في كل تجلياتها، ولكن لن نقول إنها صوفية لأن القصيدة لتكون صوفية يجب على شاعرها التمذهب بهذا المذهب لا أن

الناقد والقاص العراقي أ.د. مصطفى لطيف عارف

الشاعر عدنان الفضلي

يتحفنا بين فينة، وأخرى بأسلوبه الصوفي لنقول عن نتاجه إنه صوفي الطابع، وأصبحت اليوم معالجة شعر الشاعر أكثر سهولة عما كانت عليه قبل ثلاثين أو حتى عشرين سنة، فبفضل الأبحاث اللغوية الحديثة تأسس ما يعرف بالنظام اللغوي الذي يقوم على إحصاء سطور القصيدة ثم إحصاء عدد الإزاحات في كل سطر تركيب الجمل، وستكون النتيجة كالآتي: كلما ازدادت كثافة الإزاحة في السطر سجل السطر الواحد نقطة شعرية وكلما ازدادت السطور الشعرية ازدادت القيمة الفنية للقصيدة فإذا كان لدينا عشرون سطراً، وكل سطر يضمر نقطة شعرية فهذا يعني -فنياً- القصيدة وصلت إلى ذروة الإبداع الشعري والعكس صحيح

قراءة سيميائية في ديوان (بريد الفتى السومري) للشاعر عدنان الفضلي

تكاد تكون القصيدة كلها عاجة بالإزاحات التي أضفت على هذا النص توتراً، وغموضاً هذا النص عبارة عن كسر للمعنى السائد وهو أكثر قرباً إلى التشفير، ومهمة الناقد تتجلى فقط في تأويل معناه وشرحه بطريقة مناسبة، لكن المعنى الأصلي للنص يوجد فقط في نظام الكود الإشاري في الذهن، ولا سبيل إلى الوصول إليه لأن ما يصلنا منه فقط تمثيلات لغوية نفسرها على وفق لما نراه نحن المتلقي، وحتى كاتب النص نفسه لا يستطيع أن يشرح الكيفية التي أجبرت رموزه أن تتجه إلى هناك، وليس إلى هنا، وأنا شخصياً أميل إلى ترحيل هذا التوتر، والغموض في النص ، أو كتابة معنى لها يستقيم مع قانون اللفظ، والمعنى المتبنين في عادة التوصيل، والحاكم لها، فالتوصيل الأول كان إشارة وليس كلمة منطوقة أو مكتوبة، إن تركيب الجملة اللغوية لا يصدر من مركز تركيبي واحد كما يقول تشومسكي إنما يصدر من قوالب فطرية ذات قواعد إشارية منفصلة بعضها عن بعض تشكلت على وفق دافع الاعتقادات، والرغبات وأن ورشة العمل السيميائي يجب أن تعود مرة أخرى إلى أبحاث داروين، وفرويد، وبياجيه وليس فقط إلى دي سوسير وأمثاله.

ونحن العرب لدينا أكبر فتح لغوي في جملة واحدة كتبها ابن جني العبقري، العلاقة بين اللفظ، والمعنى علاقة اعتباط، وليست علاقة عضوية تلك الجملة التي فتحت الطريق أمام تعدد المعنى المدلول

وكل هذه السلسلة التي تؤدي إلى الإبداع الشعري مرتبطة بالإزاحة، والمصطلح النقدي المتداول في عالمنا العربي بكثرة، وحتى الآن ليس هناك سند معرفي متين يشير إلى أن مبدأ الإزاحة هو وحده فقط المسؤول عن شعرية النص على الرغم من أنه العنصر الأساس في العملية الشعرية، فنراه يقول:

شطبوا آثار خطواته
الأصدقاء الذين صفقوا لجنونه
لم يحضروا تشييع قصيدته
واكتفوا بالانزواء

. أيضاً هناك مبدأ آخر أسميه إزاحة الفكرة السطر لا ينتهي باكتمال الجملة النحوية إنما ينتهي باكتمال الفكرة في الجملة، والسياق العام للكتابة شعر وقصة، ورواية كالورقة التي هي كينونة لوحدها، ولكنها من الشجرة، ونضيف مادام أصحاب الومضة، والقصيدة القصيرة جداً يجدون بالعصر السريع الذي نحن فيه سبباً مهماً لشرعنة هذا الجنس، فكيف يردون على سيادة الرواية في زمن السرعة، والعراقي (عدنان الفضلي) محكوم بالعراق في شعره وسوى ذلك، هل في الأمر خصوصية للعراقي أكثر من أي مواطن في بلد آخر في مثل هذه العلاقة بالنسبة لي فهو التلاحم، والاشتباك بين الفرد والمحيط الجغرافي البشري المحدود في خارطة اسمها الوطن، إن العراق مشهد تراجيدي ليس في الحاضر فقط، وهذه التراجيديا بحد ذاتها مصهر إنساني للعراقيين أنفسهم وقد عبر الشاعر عن ذلك في شعره، فنراه يقول

كثيراً ما احتفينا برايات الوطن العتيق
حتى التي تنشر على النعوش
العائدة تواً من الحرب
مشفوعة بنشيد سومري عتيق
أمُ تولول على لحدٍ
يشبه مهداً سومرياً

كان شاعراً جاداً يسعى إلى خلق أداة تواصل، وتعبير مختلفة لكنها قريبة من القلب، وإلى كتابة شعر لا يخلو من البعد التأملي الفلسفي، شعر مفعم بالرمز، والمعنى الجديد،

الناقد والقاص العراقي أ.د.
مصطفى لطيف عارف

وما يزال للنثر بعد طول الرحلة، واتساع دائرة الانزياحات في شعره، ويرى الدكتور عبد العزيز المقالح أن قصيدة الومضة هي قصيدة التكثيف الشديد، والتلميح الأشد حيث تكون فيها مساحة المصرّح به أقل بكثير من مساحة المسكوت عنه، وفي هذا النوع من القصائد يحيل الشاعر الفضلي المتلقي إلى كل حرف من حروف قصائده ومن ثم فهي تسمح للمتلقي بإعمال فكره، واستخدام كل مهاراته الثقافية والأدبية، واللغوية لفك طلاسم هذه القصائد، وقصيدة

الشاعر عدنان الفضلي

الومضة عند الفضلي تعد قصيدة المثقفين، ولا يمكن لأنصاف المثقفين أن يتعاملوا معها أو حتى يستمتعوا بها، وإن كنت أختلف مع الدكتور عبد العزيز المقالح في رأيه السابق، كون قصيدة الومضة للمثقفين فقط، فهناك بعض الشعراء الأميين ينظم هذا الجنس الأدبي البسيط، وهناك من الشعراء من لا يملك أية ثقافة ينظمها، ويتذوقها، ويمكن أيضاً أن نقول إنها قصيدة النضج، واكتمال المعين الشعري لشاعرها، ويمكن أيضاً أن نقول إنها قصيدة الصمت الإيجابي، أو الصمت المقروء، قصيدة الومضة

قراءة سيميائية في ديوان (بريد الفتى السومري) للشاعر عدنان الفضلي

أيضاً هي قصيدة الدهشة في أنقى معانيها ويمكن القول باختصار أنها القصيدة التي تستنفر عقل، وفكر المتلقي ليكون على قدر مستواها الفكري، والأدبي، وقصيدة الومضة هذه مأخوذة عن أبجرامات الشعر الإنجليزي الحديث وقد كتب تحت هذا العنوان أبجرامات الشاعر، والناقد الكبير د. عز الدين إسماعيل في العديد من قصائد الومضة في التسعينيات من القرن الماضي

ومن الشعراء الذين يكتبونها باقتدار حتى الآن الشاعر الدكتور حسن فتح الباب، والشاعر والناقد الكبير د. كمال نشأت تحت عنوان قصائد قصيرة وقد صدر له ديوان كامل تحت هذا الاسم كما أن الشاعر والناقد الكبير عبد المنعم عواد يوسف يكتب هذه القصيدة أيضاً بحكم نضجه، وامتداد تجربته الشعرية، والنقدية، هذا ما يراه الأستاذ إبراهيم خليل إبراهيم، وأيضاً كتبها الشاعر العراقي عدنان الفضلي، فنراه يقول:

رقنت قيد قلبي
حتى لا يكمل مراحل دراستها

بريد الفتى السومري

Riyadh Hamza